٢ ـ مدينـــــة الزهراء

وبيانها الملوكية القصيرة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمـــــة البحث

وقد انتهت الينا عن هذه الضاحية الملوكية الشهيرة أوصاف وأرقام مدهشة تنبىء عما كانت عليه من الضخامة والفخامة، فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس أن الزهراء كانت تشغل مسطحاً قدره تسعمائة وتسعون ألف ذراع، وأن مبانيها اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين صغيرة وكبيرة، منها ما جلب من مدينة رومة، ومنها ما أهداه قيصر قسطنطينية، وأن مصاريع أبوابها كانت تبلغ زهاء خمسة عشر ألفا، وكلها ملبسة بالجديد والنحاس المموه؛ وذكر مؤرخ آخر أن عدد الفتيان بالزهراء كان ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين فتى، وعدد النساء والخدم بالقصر ستة آلاف وثلثمائة، يصرف لهم في اليوم ثلاثة عشر ألف رطل من اللحم سوى الدجاج والحجل وغيرها [1]. وقد لا نجد في المنشآت الملوكية الحديثة ما يذكرنا بهذه الأرقام المدهشة سوى القصر البابوى أو قصر الفاتيكان الشهير برومه وما انتهى اليه خلال العصور المتعاقبة من الضخامة والفخامة والجلال، فان هذا المقام الكنسى الملوكى الفخم يحتوى على أربعة آلاف غرفة وعلى مئات الأبهاء والساحات والأروقة، ويضم عدة أجنحة ومجالس رائعة أسبغ عليها أبدع ما عرف الفن الرفيع من آيات الزخرف والنقش والتصوير

(١) نفح الطيب ص ٢٦٥

— ٢ —

ولم تعمر الزهراء طويلاً كقاعدة ملوكية؛ فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة زهاء أربعين عاماً فقط، منذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٩ هـ حتى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ؛ ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة ملوكية، ولكن لأن تحولاً خطيراً قد وقع في سلطان بني أمية؛ فقد ترك الحكم الملك لابنه الوحيد ـ هشام المؤيد ـ وهو طفل لم يجاوز الحادية عشرة؛ وسرعان ما استولى الوزير محمد بن عبد الله بن أبي عامر على مقاليد الحكم بمؤازرة صبح أم المؤيد ووصية العرش، ولم يمض قليل حتى استأثر ابن أبي عامر بكل سلطة ورياسة في الدولة؛ وفي سنة ٣٦٨ هـ أنشأ له ضاحية ملوكية جديدة بجوار قرطبة على نهر الوادى الكبير وأسماها الزاهرة، وجعلها قاعدة الحكم، ونقل اليها خزائن الأموال والأسلحة ودواوين الحكومة، واتخذ سمة الملك وتسمى بالحاجب المنصور

وهكذا فقدت الزهراء صفتها كقاعدة رسمية، وشاءت الأقدار ألا تكون منزل الملك والخلافة إلا في عهد مؤسسها وخلفه الذى اكمل بناءها. وكان قيام الحاجب المنصور في الواقع خاتمة لسلطان بني أمية، ولم يبق لهم بعد ذلك من الملك سوى الاسم؛ وقد بقيت الزهراء حيناً آخر مقاماً ملوكياً للخليفة المحجور عليه، ولكنها فقدت إلى الأبد أهميتها السياسية، وروعتها الملوكية

ثم كانت المحنة الكبرى بانهيار هذا الصرح البديع الذى شاده بنو أمية بالأندلس، وانهيار الخلافة الأموية والدولة العامرية معاً، وسقوط الأندلس صريعة الحرب الأهلية: ففي سنة ٤٠١ هـ (١٠١١ م) زحف سليمان المستعين زعيم الثورة الأموية على قرطبة لينتزعها من المؤيد وواضح الحاجب المتغلب عليه، ثم هاجم مدينة الزهراء واقتحمها، وفتك أنصاره البربر بسكانها، وعاثوا في

الرذيلةُ الصريحـــةُ رذيلةٌ واحـدة، ولـكن الفضيلةَ الكاذبةَ رذيلتان

* * *

يرى الملحدون أن من حقهم أن يعملوا في النفس الانسانية كما يعمل أهل الدين؛ فهل من حق أصابع الرجلين أن تمشى على السِيَانة [1] كأصابع اليدين؟

* * *

لـكل إنسان عقلٌ تحكمه الغريزة، وحقيقةُ الدين أن يكون للغريزة عقلٌ يحكمها

* * *

إذا جئتَ بالنكتة وبالغتَ فيها، كنت كمن أضاء المصباح وأطفأه حين أضاء

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

(١) هي تعريب (اليانو) وجمعها بيانات بكسر الباء

معاهدها ورياضها ، وأحرقوا المسجد والقصر ؛ والظاهر أن الضربة كانت قاضية ، فلم يبق من الضاحية الملوكية الباهرة سوى أطلال دارسة ، ولا يكاد اسم الزهراء يذكر بعد ذلك فى التاريخ الأندلسى إلا كأثر عصفت به صروف الدهر ؛ وقد كانت الزهراء أيام روعتها وازدهارها وحى الشعر الرائع والخيال الرفيع ، وقد تغزل بجمالها وفخامتها جمهرة من أكابر شعراء الأندلس وأمراء البيان ، ثم رثوها بعد ذلك فى مقطوعات مؤثرة ؛ ومما قاله ابن زيدون أعظم شعراء العصر يشيد بالزهراء ورائع ذكرياتها :

خليـــلى لا فطر بسر ولا أضحى
فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى
لئن شاقنى شرق العقاب فلم أزل
أخص بمخصوص الهوى ذلك السفحا
معاهد لذات وأوطان صبوة أجلت المنى فى الأمانى بها قدحا
ألا هل إلى الزهراء أوبة فازح تقضت مبانيها مدامعه سفحا
مقاصر ملك أشرقت جنباتها
فخلنا العشاء الجون أثناءها صبحا
يمثـــل قرطبها لى الوهم جهرة
فقبتها فالكوكب الرحب فالسطحا
محل ارتياح يذكر الخـــلد طيبه
إذا عز أن يصـدى الفتى فيه أو يضحا
هناك الحمام الورق تنـــدى خفافها
ظلال عهـــدت الدهر فيها فتى سمحا
تموضت من شدو القيان خلالها
صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا (١)

ونقل الينا الشيخ محيى الدين بن العربى (٢) أبياتاً قال إنه قرأها على بعض جدران الزهراء بعد خرابها ، رثاء فى المدينة الشهيرة وهى :

دَيار بأكناف الملاعب تلمع وما إن بها من ساكن وهى بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب فيصمت أحياناً وحينا يرجع
فخاطبت منها طائراً متفرداً لمشجن فى القلب وهو موجع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكى فقال على دهر مضى ليس يرجع

ويرثى الفتح معاهد الزهراء خلال رواية نقلها عن جولة لبعض الكبراء فى تلك الأطلال : « وآثار الديار قد أشرفت عليهم كشكالى ينحن على خرابها ، وانقراض إطرابها ، والوحى يعشيها لاعب ، وعلى كل جدار غراب ناعب ، وقد محت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ، وطالما اشرقت بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من شذاهم وأرجت ، أيام نزلوا خلالها وتفيأوا ظلالها ، وعمروا حدائقها وجنانها ، ونبهوا الآمال من سناتها ، وراعوا الليوث فى آجامها ، واخجلوا الغيوث عند انسجامها ، فأضحت ولها بالتداعى تلفع واعتجار ، ولم يبق من آثارها إلا نؤى وأحجار ، وقد هوت قبابها ، وهرم شبابها ؛ وقد بلين الحديد ، ويبلى على طيه الجديد . . . »(١)

ويحدثنا الرحالة البغدادى ابن حوقل عن الزهراء — وقد زارها أيام الحكم — فيصف موقعها ، ويقول إن العمارة اتصلت بينها وبين قرطبة ، وأن لها مسجداً جامعاً دون جامع البلد (قرطبة) فى المحل والقدر ، وعلى سورها سبعة أبواب حديد ، وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة ملك ، وابتذالا لجيد الثياب والكسى ، وفراهة الكراع وكثرة التحلى ، وإن لم يكن لها فى عيون كثير من الناس حسن بارع »(٢).

وكانت أطلال الزهراء ما تزال قائمة حتى القرن السابع ، الهجرى (القرن الثالث عشر) وقد ذكرها الشريف الادريسى فى معجمه الجغرافى الذى وضعه فى منتصف القرن السادس وذكر أن بينها وبين قرطبة خمسة أميال (٣) ؛ وذكرها أيضاً ياقوت الحموى فى معجمه الجغرافى الذى وضعه فى أوائل القرن السابع الهجرى (٤) . وفى سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٦ م) كانت نكبة الأندلس ، ونكبة الاسلام بسقوط قرطبة فى يد النصارى ، فطويت بذلك أسطع صحف الاسلام وصحف الخلافة فى الأندلس ؛ وكانت قرطبة قد فقدت أهميتها السياسية منذ الثورة وسقوط الدولة الأموية ، ولكنها لبثت بعد ذلك عصراً تحتفظ بهيبتها

(١) راجع قصيدة ابن زيدون برمتها فى ترجمه فى « قلائد العقيان » للفتح ص ٧٢ .

(٢) هو من أكابر متصوفة الأندلس وعلمائها فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ؛ وقد نقل الينا هذه الرواية والأبيات فى كتابه العبهر محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار

(١) راجع قلائد العقيان فى ترجمة المعتمد بن عباد ص ١٠

(٢) المسالك والممالك ص ٧٨

(٣) راجع نزهة المشتاق (المختصر) طبع رومة — ص ١٩٣

(٤) راجع معجم البلدان تحت كلمة الزهراء (مصر) ج ٤ ص ٤٢١

الخلافية القديمة . ومن المرجح أن اطلال الزهراء بقيت بعد سـقوط قرطبة فى يد النصارى عصراً يصعب تحديده ؛ غير أن قرطبة فقدت فى ظل سادتها الجدد صبغتها ومعالمها الاسلامية بسرعة ؛ ولم يبق اليوم من آثارها ومعاهدها الاسلامية الشهيرة سوى مسجدها الباهر الذى حوله الأسبان منذ افتتاحها إلى كنيسة جامعة ؛ وقد شوهت بذلك معالمه ومناظره الأولى ، ولـكنه ما زال يحتفظ بكثير من أروقته وأبهائه القديمة ، وما زال يلفت نظر الزائر المتجول بمسحته العربية والاسلامية ، بل ما زال يعرف حتى اليوم بكلمة « مزكيتا » Mesquita أى المسجد ؛ ولم يبق غير المسجد من معاهد قرطبة وأبنيتها الفخمة القديمة سوى انقاض بالية . أما الزهراء ، فقد اختفت معالمها منذ عصر بعيد ، ولم يبق منها اليوم أثر ما . بيد أن موقعها ما زال يعرف بالتقريب ، فى شمال غربى قرطبة ، ويطلق عليه اليوم « قرطبة القديمة » Cordoba la viesa ؛ ويقوم إلى جوار موقعها القديم إلى اليوم دير « سان جيرونيمو » ويقال إنه بنى بانقاض قصر الزهراء [1] وقد عنيت الهيئات الأثرية الأسبانية فى العهد الأخير باجراء الحفر فى تلك المنقطة محاولة استكشاف مواقع الزهراء ومعالمها الحقيقية [2]

وقد كان لهذا المصير المحزن الذى انحدرت اليه مدينة الناصر بسرعة مؤسية شبيه بين مصاير القواعد الملوكية الاسـلامية ؛ ذلك هو مصير مدينة القطائع الملوكية التى أنشأها ابن طولون إلى جانب الفسطاط ، وأسبغ عليها ولده خمارويه آيات رائعة من الفخامة والبهاء ، ثم شاء القدر أن تنهار دعائم الدولة الطولونية ، وأن تمحى القطائع بين يوم وليلة ، بعد حياة قصيرة لم تجاوز ثلث قرن ؛ فـكانت مأساة مؤثرة تشبهها مأساة الزهراء من وجوه كثيرة مع فارق فى العظمة والمنزلة السلطانية ، وفى ظروف العصر ، وصروف الأحداث ؟

محمد عبد الله عنان

(١) Ency. de Islam-Cordoue

(٢) راجع فى تاريخ الزهراء وأخبارها وأوصافها : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ — ٢٤٧ و ٢٦٤ و ٢٦٦ و ٢٦٩ و ٢٩٢ و ٢٩٤ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ — ٢٤٨ والمسالك والممالك لابن حوقل — ص ٧٨ و ٧٩ ، وياقوت فى معجم البلدان ج ٤ ص ٤٢١ (كلمة الزهراء) ؛ وراجع أيضا Dozy : ibid, II, P. 174 Murphy : Mohamedan Empire in Spain P. 168—172

مذاهب الفلسفة

٢ — المذهب الطبيعى *

للأستاذ زكى نجيب محمود

إذن فالجامد والحى شيئان مختلفان أشد ما يكون الاختلاف ، وليس من اليسير أن يسيغ العقل أنهما جانبان لحقيقة واحـدة هى الطبيعة ، وأنهما يسيران وفق قانون واحد هو قانون الطبيعة ؛ ولعل أعقد المشاكل التى يصادفها المذهب الطبيعى هى هـذه : كيف أنتج الجماد عالم الأحياء وبين موات الجماد وحياة الأحياء ما رأينا من فروق ؟ هنا تقدمت نظرية التطور لتأخذ بيد المذهب الطبيعى فتنجو به من هـذا المأزق العسير بأن تفسر لنا كيف نشأت الحياة وكيف نشأ العقل

أما دارون فلم يستطع ذلك ، أو هو على الأصح لم يحاوله ، فقد سلم بوجود الحياة تسليما وفرضه فرضاً ، ثم بدأ سيره من هذه النقطة بأن أخـذ يبحث فيما يطرأ على الحياة من تغير وتحول ، ومعنى ذلك أن دارون قد فرض أن الـكائن الحى قد تسلسل من كائن حى قبله ، وهذا من كائن حى قبله ، وهكذا دواليك . فهو على ذلك لم يزد فى بحثه على أن تتبع حلقات الاتصال بين أنواع الأحياء أى بين الـكائنات السفلى والـكائنات العليا ، وإذن فدارون لم يقدم فى نظريته حلاً للمشكلة الأولى : مشكلة المذهب الطبيعى ، وهى ، كيف نشأت الحياة من الجماد ، وكيف نبت العقل مما لا عقل فيه ؟

ثم جاء فى أثره هربرت سبنسر وتناول بعقله الجبار نظرية دارون فأكمل نقصها وأتم مطلبها . فأقام الحجة على أن الحياة إن هى إلا ضرب من ضروب المزيج الـكيميائى بين أجزاء المادة ، فاذا كنا نبغى الوصول الى الحلقة التى تصل الحياة بالجماد ، فما علينا إلا أن نلتمس علماء الـكيمياء ! ... ولقد رأى سبنسر مما وصلت اليه العلوم فى عهده أنه ليس بين قطع الجماد وكائنات الأحياء تلك

(*) يحتاج بعض ذوى العقول الضعيفة أن ننبه الى أن هذه الفصول انما قصدت للدراسة وحدها ، ومديهى أنها لاتعبر لـكاتبها عن رأى خاص